تاريخ الإرسال: 2016/04/09 - تاريخ القبول للنشر: 2016/05/19 تاريخ النشر: 2016/06/28

الشك المنهجي في الاسلام

طيبي ميلود
جامعة الجزائر 02

لعل ما جعلني اكتب في موضوع الشك المنهجي وبالتحديد في الفكر الاسلامي تساؤل احدى الطلاب بجامعة محمد خيضر بسكرة على ما اذكر (خمار محمد ، بن مدور عقبة ، خليل حيزية) وغيرهم ممن تساءلوا عن ارتباط الشك المنهجي بديكارت و الفلسفة الغربية كمحرك للعقل البشري ام ان التراث الاسلامي كان سباقا لمثل هذا الطرح ، ودون الاسبقية الزمنية ولا حفاظا على حقوق الابداع لدى طرف على حساب اخر ، احاول ان اعالج الموضوع بطريقة فلسفية وموضوعية لأبيّن التأصيل الفكري للشك المنهجي في تراث المسلمين عموما، وكيف اكد فلاسفة الاسلام على هذا النقد الذي اعتبره ضروريا لكل المعرفة .

وأي متحدث عن الشك المنهجي لابد له ان يتحدث عن المنهج العلمي بصفته الحاضن الاكبر لمثل هذا الاسلوب ، وعندما نتحدث عن ذلك يجب ان نشير الى ميزات المنهج العلمي عند المسلمين ، حيث طغيان التجربة فلا يستمد حقائقه إلا من الملاحظة الحسية والتجربة العلمية ، ولا يختبر صواب معرفته ، إلا بالرجوع الى الواقع ولذلك يقول برتراند راسل في هذا السياق « ان العلم وان كان يبدأ بدراسة الوقائع الجزئية إلا ان معرفتنا التجريبية بهذه الوقائع لا تكف لقيام العلم ، لان العلم لا يستقيم إلا اذا كشفنا القوانين العامة التي تكون هذه الوقائع الجزئية تطبيقا لها « (وفيق الطويل ، مقال العدد 87)

واذا عدنا الى التراث العلمي الاسلامي او عند المسلمين فإننا نجد جابر بن حيان اول من ارسى قواعد العلم التجريبي حيث قال فيه بول كراوس « ان جابر بن حيان قد سار بالتراث الشرقي في الكيمياء في اتجاه اثر تجريباً و تنظيماً، وبعد به عن السرية و الرموز « (مصطفى لبيب ص 59) وهو يؤكد في كتاب التجريب ان ملاك كمال هذه الصنعة (يعني الكيمياء) العمل والتجربة ، فمن يعمل ولا يجرب لم يظفر بشيء ابدا (مصطفى لبيب ، ص 83) و التجربة وسيلة المعرفة و هي سبيل الاتقان يقول « من لا يجرب لا يصل الى ادنى مراتب الاتقان ، فعليك يا إبني بالتجربة لتحصل على المعرفة « (مصطفى لبيب ، ص 83) و التجربة ليست مقصودة لذاتها ، بل الهدف منها المهارة والمعرفة و الدربة ، فمن كان دربًا كان عالما حقا ، ومن لم يكن دربًا لم يكن عالمًا ،

وحسبك بالدرية في جميع الصنائع على حد تعبير جابر بن حيان

غير انه يجب الاشارة الى رائد اخر من رواد المنهج التجريبي ونقصد الجاحظ وهو اشهر من استخدمه من علماء الاسلام ، وقد تجلى ذلك في مؤلفاته العديدة .

ككتابه الحيوان ، فهو يستخدم البحوث التجريبية ، ولا يقنع عقله إلا اذا جرّب و اختبر و شاهد و عاين ، ووقف على على التجارب بنفسه و الظواهر التي رصدها الجاحظ اكثر من ان تحصى ، وقد استخلص منها الحقائق العلمية التي يتصّيدها ونقد منها ما يتطلب النقد في منهج نقدي متكامل.

وكانت الاساطير و الخرافات التي شاعت في تلك العصور عن عالم الحيوان وألصقت به من الخوارق ما لا يصدقه العقل ، فتصدى الجاحظ لهذه الشائعات التي ليست من العلم في شيء ، فنقد وصوّب ما كان شائعا بين الناس وفي بطون الكتب يومئذ ، وقد امتلك الجاحظ في منهجه التجريبي الذي سلكه ، قوة استنتاج هائلة وملاحظة عجيبة ، وقدرة على استنباط الحقائق و النفاذ الى القوانين العلمية ، فكان اتجاهه العلمي واضحا فيما حققه من مسائل وما رصده من ظواهر خاصة في العالم الحيواني ، وهكذا فان الجاحظ في اتجاهه العلمي يستند الى الوقائع و يعتمد على المعاينة والحواس ، وكان يعلق اهمية غير قليلة على المعاينة كنقطة انطلاق فلا يطمئن الى الامر إلا بعد ان يراه بأم عينه اوليس هو القائل « ليس يشفيني الا المعاينة »

والمعاينة عنصر من عناصر التحقيق من علوم الطبيعة ، يضم اليه التجربة و المقابلة والفرض ، و التصنيف وكل قول في نظر الجاحظ « يكذبه العيان ، فهو افحش خطأ ، وأسخف مذهباً ، وأدل على معاندة شديدة او غفلة مفرطة » (الجاحظ ، ص 112)

وهكذا فان التجربة في الفكر العلمي عند المسلمين غايتها الاكتشاف و الاطلاع والمقارنة بين الحقائق ليخرج المرء بحكم صادق ، وبحقيقة كلية تندرج تحتها جزئيات مختلفة و حالات فرعية ، و هكذا فان المنزع التجريبي قد ظهر عند كثير من المسلمين ، كجابر بن حيان ، والنظّام (ابو اسحاق) و الجاحظ و غيرهم كثير مما لا يتسع هذا المقال لذكرهم جميعا .

و لعلني عندما اعدّد خصائص وصفات هذا المنهج عند المسلمين اذكر الدقة العلمية ، فقد امتاز المنهج الحديث بالدقة في مختلف الاصعدة دقة في الكميات ، و دقة في الزمن ، ودقة في العمل...الخ .

وان اصطلح على ما يسمى لديهم بالمنهجية العلمية المادية ، فقد نزعوا الى التكميم وهو أحد الصور المادية ، والى ضبط الوقائع الجزئية و الظواهر الطبيعية لفرط صغرها وقد جعل الميزان اساسا لهذا العمل التجريبي ، كما

ظهر الارصاد في علم الفلك وانتصبت المراصد الكبرى في بغداد و القاهرة ودمشق وفاس و تفننوا في الاسطرلاب ، فمنه الشمسي والتام والهلالي و الزورقي ، وقد وفق الفرغاني (247 ه - 861 م) في ارصاده الى تحديد المسافات بين الكواكب (توفيق الطويل ، مقال العدد 87).

ضف الى ذلك اهم الميزات التي اراه ضرورية وهي الامانة العلمية التي ميزت البحث العلمي عند المسلمين حيث كان العلماء ينسبون كل عمل الى اصحابه ويعترفون بمن سبقهم الى البحث وبمن شاركهم فيه وحتى بمن اتمه ولعل ذلك يعود الى طبيعتهم و عقيدتهم التي تدعوهم الى ذلك . ولعل ابرز مثال في ذلك اجتهادات القاضي عياض و ابن صلاح و غيرهما برسائلهم في علم الحديث من احسن التصنيفات و ما جاء في هذه الرسائل من دقة في الخبرة وقدرة على تتبع الاثر وبخاصة في علم التاريخ ، وقد ثبت ان المسلك الذي اتبعه المسلمون في تنقية الحديث وتمييز صحيحة من موضوعه اثّر الى حد في اساليب علماء العصر الحديث و كان لمنهج المسلمين وقواعدهم في الرواية لتحري الحقيقة الاثر الواضح على اساليب المؤرخين المعاصرين .

اما الخاصية الاخرى لهذا المنهج عندهم فهو طلب الحقيقة بكل موضوعية فهو سعي جاد بعيدا عن الذاتية و التحيّز وتكريس الجهد لإظهار الحقيقة ، كما هي و كما تبدوا في الواقع بعيدا عن التمنيات و ابعاد الميول و الاهواء والمصالح . ولعل نبذ الهوى والتعصب وعدم الميل مع الرغبات و اشتراط النزاهة في البحث من ابرز صفات العالم الاسلامي ، يقول ابوالريحان البيروني :يجب « تنزيه النفس عن العوارض المردئة لأكثر الخلق ، والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق ، وهي كالعادة المألوفة او التعصب و التظاهر و اتباع الهوى و التغالب بالرئاسة و اشباه ذلك «. (ابو الريحان البيروني ، ص 156)

وأما الجاحظ فقد استهل كتابه الحيوان بدستور بليغ في تقاليد البحث العلمي فقال « جنبك اللّه الشبهة وعصمك من الحيرة وجعل بينك وبين المعرفة نسبًا، وبين الصدق سبباً ، وحبّب اليك التثبت وزين في عينيك الانصاف واذاقك حلاوة التقوى ، واشعر قلبك عز الحق واودع صدرك البر واليقين وطرد عنك ذل اليأس وعرّفك من الباطل ما الذلة وما الجهل من القلة» (الجاحظ ، ص 113) وورد لابن الهيثم قوله « الحق مطلوب لذاته، وكل مطلوب لذاته فليس يعني طالبه غير وجوده « (ابن الهيثم ، ص 03)

هكذا رفع العلماء المسلمين لواء الحقيقة الموضوعية ، فبرزت في أساليبهم وكانت ملمحا ثابتا في ابحاثهم العلمية.

وكما عنونت سابقا – الشك المنهجي في الفكر الاسلامي – فإن هذا كله لا يصلح إلا ليكون مادة تاريخية ومقطعا من اسهام العرب والمسلمين عامة في البحث العلمي وبذلك أصل الى الشك المنهجي الذي يعتبر سنام هذا

البحث ولبه ، حيث يعتبر الشك المنهجي من اهم قواعد البحث العلمي في العصر الحديث ، ولذلك وجب على الباحث ان يشك في معارفه السابقة ويتجاهل كل ما يعرفه عن موضوع بحثه لكي لا يتأثر لمعلومات سابقة قد تكون خاطئة فتقوده الى الخطأ بناءا على اعتماده عليها . ولذالك مطلوب من العالم اخلاء عقله من المعومات المسبقة حول بحثه والشك فيها ووضعها موضع النقد ، وقد نبّه الى ضرورة انتهاج هذا المسلك ، واضعو اسس المنهج العلمي الحديث من ذالك أن فرانسيس بيكون 1626 م قد نبه على جملة من القواعد عند الشروع في بداية كل بحث علمي منها :

- عدم التسليم بأفكار المتقدمين تسليما تاما ، والبعد عن تأثيرها والتأثر بشهرة قائلها وعدم اكسابهم قداسة تنزيههم عن الخطأ.
- عدم التسرع في اصدار الاحكام.
- عدم الانسياق مع الاهواء والمصالح ونبذ التعصب.

وقد أكد روني ديكارت (1596–1650) بقوة على هذه المبادئ في مقدمتها اوجب على الباحث ان يطهّر عقله في بداية بحثه من المعلومات السابقة عن طريق الشك المنهجي ، فأرسى بذلك أهم قواعد المنهج .

وقد تفطن العلماء المسلمون الى سلامة الاخذ بمبدأ الشك المنهجي في المعرفة ، فأوجبوا على الباحث منذ شروعه في التفكير في خطة بحثه أن يطهّر عقله من كل ما يحويه من افكار حول موضوعه حتى لا يتجه في توجهات معينة . وتحدث المعلومات المسبقة أثرها على بحثه فتغبر النتائج أو تحدث لها منعطفات تحد منها.

وليس معنى هذا التنكر للمجهودات السابقة ، بل يجب على صاحب البحث العلمي الاطلاع على مجهودات السابقين وتنزيلها منزلتها الحقيقية التي يجب أن تتنزل فيها ، ولكن دون أن يقع تحت سيطرة هذه النتائج السابقة أو الوقوع في دائرة زيفها.

وقد تساءل الباحث عن سر تسرب الشك المنهجي الى الفكر الاسلامي وماهي الروافد التي صبت فيه حتى صارت له هذه المكانة الهامة في المعرفة ؟

إن المترصد لظاهرة الشك المنهجي في الفكر الاسلامي يلحظ عوامل قد ساعدت على بروز الظاهرة منها على سبيل المثال :

1- العامل الخارجي

إن الشك في المعرفة ظاهرة طبيعية تنتاب كل انسان لامتحان معلوماته واختبارها ، ولقد نبتت جذور هذا النوع من الشك منذ اكتشف الانسان نفسه أنه يخطئ ويصيب ، واكتشافه لهذه الحقيقة دفعه الى الشك في معارفه لاختبارها بين الحين والأخر وبهذا المعيار (الشك الممنهج) للتأكد من صحتها او نفيها ، وصار هذا المنهج من ابرز مميزات الفيلسوف ، فلا معنى لفلسفة لا تقوم على عقلية نقدية ، وتبوأ الشك منزلة هامة في البحث عن الحقيقة ، بل اصبح جسرا من اهم الجسور لإدراك الحقائق .

وهذا الشك المنهجي يعد ضرورة قصوى لكل باحث ، فقد لجأ اليه سقراط في طريقته التهكمية التي كان يوقع بها الخصم في التناقض ، ويبين له انه لا يعلم شيئا وقد قال سقراط « إنني اعرف شيئا واحدا هو أنني لا اعرف شيئا » وتفطن اريسطو كذلك الى أن هناك علاقة وثيقة بين الشك المنهجي والمعرفة الصحيحة (يحي هويدي ، ص 115).

بيد أن الباحثين في شؤون الفكر الاسلامي يمرون مباشرة من هذه المحاولات اليونانية في الشك الى الشك المنهجي الذي استوى نظرية قائمة بنفسها على يدي رينيه ديكارت (1596–1650) وقد اختزلوا دور الفكر الاسلامي رغم ما لهذا الفكر من محاولات لا تخلو من الاهمية ومن المجافاة للحقيقة عدم الوقوف عندها.

لقد اطلع المفكرون المسلمون على ظاهرة الشك في الفكر اليوناني وناقشوا اتجاهاته ، وردوا على المفكرين من الشكاك بقوة وجعلوا اثبات الحقائق في مقدمة العقائد التي يجب تقريرها فقالو : حقائق الاشياء ثابتة والعلم بها متحقق خلافا للسفسطائية ، فإن منهم من ينكر حقائق الاشياء ويزعم انها اوهام وخيالات باطلة وهم :

أ/ العنادية.

وهي فرقة تنكر كل شيء ، بل تنكر الوجود وهي بذلك تشك شكا قطعيا في كل المعارف الحسية والعقلية وان وجدت هذه المعارف فهي فوق مقدور البشر وهذا الراي ينسب الى جورجياس (375–480 ق م) (التفتازاني ، ص 23)

ب/العندية.

فقد سميت بذلك لأنها تعتقد ان الحقائق ذاتية تتلون بحسب كل ذات ، وهذا المذهب ينسب الى بروتاغوراس (410–480 ق م) صاحب المقولة الشهيرة « الانسان مقياس الاشياء جميعا ، فلا يمكنني العلم على نحو يقيني بأن الالهة موجودون أم غير موجودين فهناك كثير من العثبات التي تقف بيني وبين هذا النوع من العلم «.

اذ ليس هناك حقائق ثابتة ، فكل انسان يستمد الحقيقة من احاسيه المتغيرة ، وكل منا حقائق لاختلاف الاحاسيس الذاتية والمصالح والظروف الزماني والمكاني ، فكل هذه المعطيات تشترك في صنع حقيقة لكل انسان ، فهو المعيار الحقيقي لها جميعا ولا ثبوت للحقائق بل هي متغيرة .

واما الشك المذهبي ، كما هو الشأن عند بيرون 360 ق م فهو شاك ويشك في انه يشك ، وقد اتخذه صاحبه هدفا لذاته ، لأن الانسان لا يمتلك من ناحية المعرفة إلا ظواهر الاشياء ويجهل حقائقها . وبناءا على ذاك وجب التوقف عن اصدار الاحكام التماسا لطمأنينة النفس .

وهذا الشك المطلق هداما ، يتجلى ذلك في هدمه اسس المعرفة الانسانية وقد عرفه التهانوي « بأنه تجويز أمرين لا مزية لاحدهما عن الأخر ، وهو ضرب من الجهل وأخص منه ، فكل شك جهل ولا عكس

كما رد على فئة الشكاك صاحب العقائد وشارح العقائد النسفية عمر النسفي (سعد الدين التفتازاني) (نفس المصدر) ،

واما ابن حزم الظاهري فقد اجابهم في فصله بأنه « يكفي للرد عليهم ان يقال لهم قولكم لا حقيقة للأشياء حق ام باطل ؟ فإن قالوا حق اثبتوا حقيقة ، وإن قالوا باطل اقروا ببطلان رأيهم ، واجابو انفسهم بأنفسهم وكفونا شرهم « (ابن الحزم ، الفصل 8/1)

وناقش هؤلاء الشكّاك عبد القادر البغدادي (429 ه) في اصول الدين وقال فيهم: « هؤلاء معاندون (يعني السفسطائية) وينبغي ان يعاملوا بالضرب وأخذ الاموال منهم فإن اشتكوا من الم الضرب وطالبوا اموالهم قيل لهم ، إن لم يكن اكم ولا لأموالكم حقيقة لما تشتكون من الالم وما هذا الضجر ولما تطلبون ما لا حقيقة له» (البغدادي ، ص6).

وقيل لهم هل لنفي الحقائق حقيقة ؟

فإذا قالوا : نعم ، اثبتوا بعض الحقائق وان قالوا لا قيل لهم إذا لم يكن لنفي الحقائق حقيقة ولم يصح نفيها فقد صح ثبوتها.

وقد ترجم الحسن ابن الهيثم (420 ق م – 1029 م) كتاب الشكوك على بطليموس وقدم له بمقدمة فيها دعوة الى الشك المنهجي لتمحيص المعرفة ونقدها وتطهير العقل من الحقائق المسبقة حتى لا تحدث اثرها على البحث العلمي.

2- العامل الداخلي.

يتمثل في طبيعة الاسلام نفسه ، ولعله يتجلى خاصة في تربية هذا الدين الحنيف لمعتنقيه ، تربية سليمة تقوم على فحص الحقائق وتبيين الاخبار و عدم التسر في اصدار الاحكام وإقامة براهينه وبسط حججه اعتمادا عن العقل ، فقال تعالى { يا ايها الذين امنوا ان جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين } (القران الكريم ، الاية 6 من سورة الحجرات).

وتمثلت توجيهات الاسلام في محاربة الظنون وكشف الاوهام ، ودحض الاباطيل قال تعالى { وما لهم به من ان يتبعون إلا الظن إن الظن لا يغني من الحق شيئا } (القران الكريم ، الاية 28 من سورة النجم) فالظن لا يوصل الى الحقيقة ولا يقرب من اليقين قال تعالى { إن يتبعون الا طريق وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى } (القران الكريم ، الاية 23 من سورة النجم)

وطريق البحث ليس طريق الشك والظنون ، بل ينبغي رصد المعرفة والحقيقة وأبعاد الاراء المسبقة ومقاومة (أهواء النفس) ونزعتها وشهواتها ، ليكون البحث موضوعيا خاليا من كل المؤثرات الذاتية .

وقال سبحانه وتعالى { قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون إلا الظن وانتم تخرصون } (القران الكريم ، الاية 148 من سورة الانعام)

فلقد دعتنا الشريعة ان لا نعتمد على الظن وينبغي الاخذ بمناهج البحث العلمي كما في قوله تعالى { وقالوا ماهي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون } (القران الكريم ، الاية 24 من سورة الجاذية)، فالآية صريحة المعنى في تبيان طريقة العلم وهي الطريقة الصحيحة والمنهج السليم البعيد عن الظنون والأوهام و الاساطير والخرافات .

الاسلام ومحاربة الشكوك.

1- في القران الكريم.

ان القران الكريم لم ينح باللائمة على ابراهيم الخليل عليه السلام عندما شك فسأل طلبا للاطمئنان لقوله تعالي { واذ قال ابراهيم رب ارني كيف تحي الموت قال اولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ اربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على جبل منهن جزءاً ثم ادعهنّ ياتينك سعيا واعلم لن اللّه غزيز حكيم } (القران الكريم ، الاية 260 من سورة البقرة)

وقد وردت ايات تحمل معنى الشك على وجه من الوجوه في مواقف قد وقفها القران من احدا معينة كقوله سبحانه وتعالى { وانه لفي شك منه مريب } (القران الكريم ، الاية 110 من سورة هود) وقوله تعالى { بل هم في شك منها بل هم منها عمون } (القران الكريم ، الاية 66 من سورة النمل) وقوله ايضا { وانا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب } (القران الكريم ، الاية 09 من سورة ابراهيم)

2- في السنة .

الرسول عليه الصلاة والسلام لم ينكر على الصحابة الذين وجدوا شكاً بسبب وسوسة النفس ، فعن ابي هريرة قالوا يارسول الله إنا احدنا يحدث نفسه بالشيء ، وما يحب ان يتكلم به ، وان له ما على الارض من شيء ، وإنا نجد في انفسنا ما يتعاضم احدنا ان يتكلم به ، قال وقد وجدتموه ؟ قالوا نعم فقال ذاك صريح الايمان ... ذاك محض الايمان (رواه مسلم)

ولقد وصف رسول الله (ص) هذا النوع من الايمان بالايمان الخالص واليقين الحقيقي ، لان الصحابة توصلوا اليه بعد مخالطة الشك المؤدي الى طريق الحق و الصواب .

وورد في الحديث [دع ما لا يريبك الى ما يريبك] والريب مبدا الشك ، ولا سبيل لنا الى ترك ما يريبنا الا بالبحث والتقصي

واحدثت الدعوة الاسلامية الى الشك المنهجي اثرها العميق في مختلف العلوم الاسلامية ، وصارت هذه الظاهرة من طبيعة الاسلام وابرز خصائصه ، وأوضح مميزاته وصار التثبت والتقصي على شتى الاصعدة العلمية و الاجتماعية من اوكد واجبات المسلم .

فعل مستوى الشهادة مطلوبة من المسلم التحري عند آداء البيّنة وعلى مستوى القضاء اوجب الاسلام مزيد التأمل في نص الشهادة عسى ان يكون احد الخصمين ألحن و أفصح فيضيع الحق على حد قوله عليه الصلاة والسلام .

وفي القران قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} (القران الكريم ، الاية 6 من سورة الحجرات) وليس التبيين والتثبيت قد امر به المسلم على الحقوق وفي مستوى الشهادة ، بل ينصرف ذلك ايضا الى العلوم و المعارف لان القيام بها من صميم الدين وجوهره.

شك المتكلمين من المعتزلة .

ولعل من ابرز من اثمرت لديهم دعوة الاسلام هم « المعتزله « قادرة الفكر وأنصار النزعة العقلية في الاسلام ، لذلك امتازوا عن غيرهم من مفكري الاسلام بعقلية نقدية تعليلية ، فناقشوا المعتقدات الخاطئة وحللوا وعللوا وشكوا بغية الوصول الى اليقين ، وكانت ثقافتهم الموسوعيه فضلا عن ايمانهم بالعقل من الدوافع لبروز هذه النزعة الشكية في تفكيرهم ، ذلك لان الشخصية الاعتزالية رحبة الافاق ، متعدة الجوانب وكلما كانت كذلك تسلحت بروح الشك فنقدت اوضاعها ، وحاسبت نفسها وشكت فيما يرد عليها من معلومات وسجلت بروح نقدية وبفكر تعليلي ، ولذلك كانت دراسة الشك المنهجي وموقفهم منه موضوعا شّيقا دقيقا يحتاج الى بحث وتحليل ، فما هي منزلة الشك في فكر متكلمي المعتزلة ؟

بداية وفي منظوري فإن شك المعتزلة ليس شكاً مذهبيًا هدّاماً ، كما انه ليس شكا منهجياً بالمعنى الاصطلاحي الذي ظهر على يد رونيه ديكارت (1596–1650) والذي ينسب الى الحضارة الغربية ، وشك المعتزلة اذن بندرج ضمن الشك الذي بنقد المعرفة ويخضعها الى البحث و الفحص ليخلص إثر ذلك الى اليقين الخالص والحقيقة التى لا تشوبها شائبة (محمد عمارة ، ص24) ، وهذا المنزع الشكي ظاهرة عامة في الفكر الاعتزالي لها خصائص ومميزات .

وفي مقدمة شيوخ المغتزلة ابوهذيل العلاّف (235 ه) الذي شرح الاصول الخمسة وبسّط القول فيها فقد قال خمسون شكاً خير من يقين واحد (الجاحظ ، ص60) فلا معني ليقين لم يقم على منهج البحث و النظر، وأول ما يجب على المكلّف طرد الاعتقادات والظنون السابقة على النظر ، لان الاعتقادات المسبقة ليست إلا ظناً ، ولا يغني الظن من الحق شيئا، ولا يجب على المكلف ان يبقى مقلداً بل عليه ان يشك (احمد محمد صبحي ، ص204) وليس الشك اثما ولا قبحا ، و انما يقبّح الشك لو ظل الانسان على حاله من الشك ولكنه يحسن في ابتداء حال الانسان حتى يتسنى له ان يصل الى العلم الذي عنده تسكن النفس .

ومن اهم ما يمتاز به الانسان – في نظر المعتزلة – التكليف والمسؤولية اي ان الدواعي العلمية تفوق في اهميتها المباحث النظرية ، لان الدواعي العلمية مرتبطة بسلوك الانسان في الدنيا ومصريه في الاخرة ، وحال الانسان في سلوكه واعتقاده كحال المسافر عليه ان يسأل ويبحث قبل ان يقدم على السفرٍ حتى لا يظِل او يطرق طريقا فيه هلاكه ، فالغرض من الشك ان يتحرر الانسان من الضرر ليصل الى معرفةٍ تمكّنه من اداء الواجبات العقلية والشرعية .

فالعلم بانه طعاماً لذيذا ولأنه مسموم صارف له عن تناوله ولن يتسنى للانسان المكلف اداء ما يجب عليه الاّ بعلم توصل اليه بالنظر بعد الشك (القاضي عبد الجبار، المغني ، ص247) .

ويختلف الشك من هذا النمط عن شك ديكارت النظري دون الجانب العملي ، حيث استثنى الدِين لان حقائقه عن وحي ، كذلك لدواعي عملية ، وإلا يكون على حد تعبير ديكارت كمن هدم بيته قبل ان ينتقل الى بيت اخر ، اما العلاّف فالدواعي العملية لديه هي التي تفرض على المكلف (العاقل المسؤول) الشك في اصول الاعتقاد والعادات الاخلاقية (احمد محمد صبحي ، ص 204) ولذلك قال هو نفسه « خمسون شكاً افضل من يقين واحد « فالشك واجب ينبغي الاخذ به على المستويين العلمي والنظري ، واي فضل ليقين واحد مقام على منهج من البحث غير صحيح ، قد احاطت به الاهواء واكتنفته الاحكام المسبقة او التخمينات واوهام المسرح على حد قول فرانسيس بيكون .

وهكذا فإن الشك يتبوأ مكانة رفيعة في عملية المعرفة عند ابي هذيل العلاّف فهو يوصل الى اليقين ويدعوا الى النظر واعمال العقل .

وقد امتاز في هذا الشان ابراهيم بن سيار النّظام (توفي في 231 ه) بروح نقدية ، تناولت مجالات الحياة المتنوعة ، واستقطب الشك اهتمامه فقال فيه الشاك اقرب اليك من الجاحد « ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ، ولم ينتقل احد من اعتقاد الى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك « (الجاحظ ، ص 36)

وبهذا يحدّد النظّام دور لشك في المعرفة ومرتبته ووازن بينه وبين الجحود ، واعتبر الشاك اقرب الى الحقيقة ، ويبدو انّ النظّام قد نازع كثيرا من الُشكّاك والملحدين حسب رواية الجاحظ ، من ذلك المناظرات التي جرت له مع صالح بن عبد القدوس بحضور ابي الهذيل العلاّف ، وقد حضر لتعزية صالح في ابن له قد اشتدّ جزعه علية ، فقال له ابو الهذيل : « لا اعرف لجزعك عليه وجهاً اذا كان الانسان عندك كالزرع فقال صالح إنما اجزع عليه لانه لم يقرا « كتاب الشكّاك» فقال العلاّف «وما كتاب الشكوك « قال « كتاب وضعته من قرأ شك فيما كان حتى يتوهّم انه لم يكن ، وفيما لم يكن حتى يتوهم انه كان « فقال النظّام فشك انت في موت ابنك ، واعمل على انه لم يمت وان كان قد مات وشك في قراءته كتاب الشكوك وان كان لم يقرأه فبهت صالح ابن عبد القدوس (ابن المرتضي ، ص 17،18،19.) .

والملاحظ ان المتكلمين كانوا يتناظرون حول مبدأ الشك ويبدو ان هناك كتاب قيِّما حول الشكوك لان صالح بن عبد القدوس لم يأسف على امر قدر اسفه على ابنه الذي مات ولم يدرس هذا الكتاب .

فالشك مرحلة من مراحل المعرفة وسبيل الى فحصها وتمحيصها ، وقد تعلّق به المتكلمون وأدرجوه في برامج التعليم لأبنائهم حتى يشبوا على ثقافة فلسفية .

والجاحظ نفسه كان على اطلاع بمدارس الشكّاك اليونانية خلال ملازمته لدكاكين الوراقين وإطلاعه على الكتب

المترجمة ، اذ كان يبيت فيها للتثبت منها وتمحيصها حسب رواية ابن النديم (يحي هويدي ، ص 111) وثقافة الجاحظ قد اثمرت منهجاً معرفياً ذا اهمية في الشك قد نصح بتعلمه والمهارة فيه (محمد عمرة ، ص25) والتدرّب عليه لتصفية المعلومات وتصحيحها وتمييز الموضوع المزيّف من الحقيقة .

يقول الجاحظ في هذا الشان « وبعد هذا فاعرف مواضيع الشك وحالاتها الموجبة له لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له ، وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلّما ، فلو لم يكن ذلك الاّ تعرف التوقف ثمّ التثبت لقد كان ذلك مما يحتاج اليه .... فإنه لم يكن يقين قط حتى كان قبله شك ، ولم ينتقل احد عن اعتقاد الى الى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك .... ثمّ اعلم ان الشك في طبقات عند جميعهم ولم يجمعوا على انّ اليقين طبقات في القوة والضعف « ولما قال ابو جهم للمكي انا لا اكاد اشك .

قال المكي وانا لا اكاد اوقن ففخر عليه المكي بالشك في مواضيع الشك كما فخر عليه ابو الجهم باليقين في مواضع اليقين (الجاحظ ، ص35) .

هكذا دعا الجاحظ الى مواضيع الشك ، ومعرفة هذه المواضع ، تدل على ان الشك الي يدعو اليه الجاحظ شكا ًمنهجياً بديل انه يقع تعلمه والمران عليه والتمرس بأساليبه كسبيل واحد لتحصيل اليقين

(محمد عمارة ، ص25) وكوسيلة للتثبت وكمعيار دقيق لغربلة المعرفة وفرز الصحيح منها من السقيم .

ويوازن ابو عثمان بين الشك و اليقين ، فيرى ان الشك في طبقات عند جميعهم ، بينما الحقيقة واحدة لا خلاف فيها ، وهذه الموازنة تُفضي بنا الى انّ الشك الذي تحدث عنه الجاحظ شك منهجي هدفه الحقيقة وغرضه اليقين ، وفخر الفوز باليقين امر مألوف لدى اهل الفكر ، اما الفخر بالشك في الشك – حسب اشارة الجاحظ – فأمر طريف مبتكر في الفكر الاسلامي يستحق التأمل وهو امر نبّه عليه الجاحظ ودعى اليه كمنهج من مناهج البحث عن اليقين ، كما ينتقل الجاحظ الى حالة التلبس بالشك فيقرّر ان العوام اقل شكوكا من العلماء لانهم لا يتوقفون عن التصديق ولا يرتابون بأنفسهم فليس عندهم الا الإقدام على التصديق المجرّد او التكذيب المجرّد ، وهكذا فرّق الجاحظ بين العوام والخواص على حد تعبيره ، فالخواص من العلماء يتوقفون عن تصديق ما يقال لشكهم فيه حتى يتسنى لهم ان يعرفوا الحقيقة ويوقنوا بها ، وأما العامة فيقبلون عن التصديق او التكذيب من غير شك يتيح لهم التصديق والتكذيب (الجاحظ ، ص36).

وسبيل الوصول الى الحقيقة يتمثل في جمع الادلة وتبويب الظنون وافتراض الافتراضات ثم فرزها بعد الفحص والتأمل يقول الجاحظ في هذا الشأن « وسبيل ذلك استخراج الادلة التي تحوّل المظنون الى يقين ، وأول العلم بالغائب الظنون والظنون إنما تقع في القلوب بالأدلة ، فكلما زاد الدليل قوي الظن حتى ينتهي الى غاية تزول

معها الشكوك عن القلوب وذلك لكثرة الادلة وترادفها» (الحاحظ ، ص 121)

ومما يمكن الوصول اليه هو التأكد من انّ الجاحظ كان هدفه من الشك ادراك الحقائق وليس الهدم والتزييف وزيادة الشكوك وهذا ما طبقه الجاحظ نفسه على عديد الروايات التي لم يتقبل صحتها وكان بحاجة الى الشك فيها ، سواء شكوكه في روايات اريسطو « مثل حديثه عن الضفدعة « او روايات غيره ، وهكذا يعني ان وجوب الشك عنده يلزم فقط الاشياء التي هي محل الشك محذرا من الشك المطلق الذي ليس له غرض الاّ الشك نفسه وهو ما يطرح فكرة وجوب الشك هذا من منظور غير علمي ويتضح ذلك عند القول « وقد زعم ناس من الجهّال ونفر من الشكاك ممن يزعم ان الشك واجب في كل شيء إلاّ في العيان « (المصدر السابق ، ص 247)

وهذا يلزمنا حقيقة طرح السؤال : هل الشك واجب فعلاً ؟ وهل هو اول واجبات المسلم ؟ وهذا ما سنجيب عنه في مقال اخر يمكننا من تحديد ما ينبغي عن المسلم من واجب الشك الممنهج حتى يدرك اليقين .

المراجـــع :

– مصحف القران الكريم

1- توفيق الطويل في تراثنا العربي الاسلامي ، (مقال) ، مجلة عالم المعرفة ، العدد ، 87. ،
2- مصطفى لبيب ، الكيمياء عند العرب ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، سنة 1967 ، ص 5
3- نفس المصدر ص 83
4- نفس المصدر ص 83.
5- الحاجظ ، كتاب الحيوان ، ج3، ص 112
6- توفيق الطويل، في تراثنا العربي الاسلامي ، مجلة عالم المعرفة ، العدد 87.
7- ابو الريحان البيروني، الاثار الباقية عن القرون الخالية، العلم عند العرب ،ص 7.156 –
8- الجاحظ ، كتاب الحيوان، 1/5. ج3، ص 8.113 –
9- ابن الهيثم، مقدمة كتاب الشكوك على بطليموس، تحقيق عبد الحميد، صبره ومن معه، ص 3
10- يحي هويدي، مقدمة في الفلسفة العامة، دار النهضة العربية، القاهرة، ط7، ص 115.
11- التفتازاني، شرح العقائد النسقية ، ص 23.
12- نفس المصدر ، ص 23.
13- ابن الحزم ، الفصل 1/8.
14- البغدادي، اصول الدين، ص 6.

15- القران الكريم ، الاية 6 من سورة الحجرات
16- القران الكريم ، الاية 28 من سورة النجم
17- القران الكريم ، الاية 23 من سورة النجم
18- القران الكريم ، الاية 148 من سورة الانعام
19- القران الكريم ، الاية 24 من سورة الجاذية
20- القران الكريم ، الاية 260 من سورة البقرة
21- القران الكريم ، الاية 110 من سورة هود
22- القران الكريم ، الاية 66 من سورة النمل
23- القران الكريم ، الاية 09 من سورة ابراهيم
24- القران الكريم ، الاية 6 من سورة الحجرات
25- محمد عمارة ، الاسلام وحقوق الانسان ، (سلسلة عالم المعرفة العدد 79)، الكويت، ص24
26- الجاحظ ، كتاب الحيوان، ج3، ص60
27- احمد محمد صبيحي ، في علم الكلام ، ج1، ص204.
28- القاضي عبد الجبار، المغني ، ص247
29- احمد محمد صبحي ، مصدر سابق ، ص
30- الجاحظ ، الحيوان ، ج6، ص 36.
31- ابن المرتضي ، باب ذكر المعتزلة ، ص 17،18،19
32- يحي هويدي ، مقدمة في الفلسفة العامة ، مصدر سابق، ص 111
33- محمد عمارة ، ضرورات لاحقوق ، عالم المعارف، ص25.
34- كتاب الجاحظ ، الحيوان ، ج6، ص 35.
35- محمد عمارة ، مصدر سابق ، ص 25.
36- الجاحظ ، المصدر السابق ، ج6 ، ص 35.
37- الجاحظ ، الرسائل ، رسالة المعاش و المعياد ، ج1، ص121.
38- نفس المصدر ، ص 247.

قائمة المراجع

– مصحف القران الكريم

ابن الحزم ، الفصل 1/8 1.

2. ابن المرتضى . باب ذكر المعتزلة .

3. إبن الهيثم . مقدمة كتاب الشكوك على بطليموس. تحقيق عبد الحميد ، صبره ومن معه.

4. أبو الريحان البيروني. الاثار الباقية عن القرون الخالية . العلم عند العرب

5. احمد محمد صبيحي . في علم الكلام . ج1.

6. اكتشاف اصطلاحات الفنون. 3/780.

7. البغدادي. اصول الدين.

8. التفتازاني. شرح العقائد النسقية .

9. توفيق الطويل . في تراثنا العربي الاسلامي . سلسلة عالم المعرفة . العدد 87.

10. الجاحظ ، الحيوان. 1/5.

11. الجاحظ ، الرسائل ، رسالة المعاش و المعياد ، ج1،

12. الحاجظ ، كتاب الحيوان . ج3.

في تراثنا العربي الاسلامي . (مقال) . مجلة عالم المعرفة ، العدد . 13.87 .
14. القاضي عبد الجبار. المغني . ص247.

15. محمد عمارة . الاسلام وحقوق الانسان . (سلسلة عالم المعرفة العدد 79)
16. محمد عمارة . ضرورات لاحقوق . عالم المعارف.

17. مصطفى لبيب . الكيمياء عند العرب. دار الكتاب العربي ، القاهرة . سنة 1967.

18. يحي هويدي. مقدمة في الفلسفة العامة. دار النهضة العربية. القاهرة . ط7.